الفصل الخامس

السيادة الإسلامية في أسبانيا

أهمية شمالى أفريقية للدولة الاسلامية - البربر - عمليات الفتح وقادته وبطولة المسلمين - شمالى افريقية نقطة وثوب على أوربا - الأسباب المباشرة لفتح أسبانيا - موسى بن نصير يستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك - سرية طريف ونجاحها عام ٩١ هـ / ٧١٠ م - حملة طارق ووقعة وادى لكه - موسى يلحق بطارق - أبناء غيطشه وضياعهم - « أرض تدمير » وكتاب الصلح . اتمام الفتح - الولايات المسيحية الباقية فى اسبانيا الاسلامية .

obeikandl.com

obeikandl.com

تطلبت الأحوال العسكرية حماية الجناح الأيسر للفتوح الإسلامية إذ لم تزل السيادة البيزنطية مبسوطة على شمالى أفريقية . فكان من الضرورى فتح شمالى أفريقية وإزالة السيادة البيزنطية بعد أن أزالهـــا المسلمون عن الشام ومصر .

واستغرق فتح أفريقية الشمالية ، مايربو على نصف قرن من الزمان (٢٥ — ٨٩ هـ / ٦٤٦ — ٧٠٨ م) ، وهذه فترة طويلة بالقياس إلى سرعة الفتوح الإسلامية السابقة ، حيث استغرق فتح الشام ومصر وفارس نحو عشرين عاما فقط ، غير أن هذا البطء راجع إلى طبيعة البلاد الجغرافية ، يضاف إلى ذلك شدة مقاومة البربر وصلابتهم ، ومن ناحية أخرى هناك حصون الروم المنيعة التى لم تزل قائمة على طول الساحـــل ، وتتولى أمر حراستها قوة بحرية هائلة ، وهذا ماضاعف من مشقات الفتح ، وعرقل من سرعة التقدم (١) .

ويتميز البربر ، سكان شمالى أفريقية ، بالشجاعة وحب الحرب وقوة الشكيمة ، ولذا كان من العسير إخضاعهم أو التغلب عليهم ، عاشوا على النظام القبلى ، وانتشروا فى مساحات واسعة مترامية الأطراف ، ومن ثم تحتم على فاتح بلادهم ، أن يحارب فى كل مكان (٢) .

---

(١) العبادى : موجز تاريخ الأندلس ص ٣٠

(٢) العبادى ص ٣٢ ؛ H. G. T. I. P. 473

والبربر قسمان . البرانس والبتر ، ومرجع هذه التسمية ، هو الزى القومى المنتشر فى شمالى أفريقية ، فالبرانس وهم سكان الحضر ، يلبسون البرنس ذا الغطاء ، للرأس ، بينما لبس البتر هذا الزى وهو أبتر من ذلك الغطاء وهؤلاء يقيمون فى البادية ، ومن فروع البرانس صنهاجة وكتامة وأوربة ومصمودة وأوريغه وغيرها ، ومن البتر إداسة ، ومنها تفرعت هوارة ولواتة وزناتة وغيرها (١)

اشترك فى عمليات الفتح سبعة من كماة الحرب ونوابغ السياسة ، أولهم عمرو بن العاص وآخرهم موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد . فوصلت جيوش عمر بن العاص إلى بلاد أطرابلس (طرابلس) فى عام ٢٢ هـ/ ٦٤٣م، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يخبره وبما أفاد به عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد أفريقية ، (٢) جاء بعده عبدالله بن سعد بن أبى سرح، وغزا أفريقية (تونس) عام٢٦ هـ/ ٦٤٧ م ، وهزم جرجورى Gargory الأرخون البيزنطى فى أفريقية ، وعاد بالغنائم (٣)

---

(١) انظر : ابن خلدون : تاريخه جـ ٦ ص ٨٩ ـ ٩٦ ، الناصرى : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٥٣ ـ ٥٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٧٠ ، العبادى : موجز تاريخ الأندلس ص ٣٢ ـ ٣٣ ، مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٥ ـ ٦ ، لوبون : حضارة العرب . ترجمة زعيتر . ص ٢٤٤ ـ ٢٥٣ ، طرخان : شمالى أفريقية والوندال (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ العدد التذكارى ١٩٦٢) ، Gsell, S. Histoire Ancienne de l'Afrique Du Nord. T. I. P. 1, Soames, j. The Coast of the Barbary, P. 12 sqq. ; Ch - André, J., La Berbérie, p. 49 ; C . Med. H. (Sh.) , Vol., I , P. 36 .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ٢

Deanesly, pp. 200 - 201

(٣) ابن عذارى جـ ١ ص ٣ ـ ٥ ، البلاذرى جـ ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٩

توقفت الفتوح الإسلامية فترة ، بسبب انقسام المسلمين خلال الفتنة الكبرى التى وقعت فى الدولة الإسلامية ، وانتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ/ ٦٤٤ — ٦٥٦ م) وقيام النزاع بين على ومعاوية . (١) ثم استؤنفت بعد أن استقرت الأحوال بقيام الدولة الأموية عام ٤١هـ/ ٦٦١م وهو المعروف بعام الجماعة ، لإجماع المسلمين على خليفة واحد ، وهو معاوية ابن أبى سفيان (٤٠ — ٦٠هـ/ ٦٦٠ — ٦٨٠ م) (٢) .

وفى العهد الأموى بدأ الفتح الحقيقى لبلاد المغرب ، فقد عقد معاوية لعقبة بن نافع الفهرى ولاية أفريقية عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م . وابتنى عقبة مدينة القيروان عام ٥١ هـ / ٦٧١ م وجعلها مركزا وقاعدة لعملياته الحربية وإمداداته . (٣) اكتسح عقبة شمالى أفريقية ووصل إلى شاطىء الأطلسى، ولشدة بأسه ظفر بلقب « قاهر الروم والبربر » (٤) . ولما خلفه أبو المهاجر دينار على ولاية أفريقية ، اعتمد الوالى الجديد على السياسة واللين والموادعة، فهادن البربر حتى لا يتعرض لخطر عدوين فى وقت معا . ولذلك انضمت إليه جموع البربر البرانس وزعيمهم يومئذ كسيله الأوروبى . اعتنق كسيله وقبيلته الإسلام وزحفوا مع أبى المهاجر وفتحوا تلمسان (٥) .

---

(١) انظر الطبرى ج ٥ ص ٩٨ — ١٤٥

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٥٢ ومايليها . ج ٦ ص ٢٧ — ٥٢ ، ٨٣ - ٨٧ ، ٩١ - ٩٧

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ١٤ - ١٥ ، اليعقوبى : كتاب البلدان ص ١٠٥ - ١١١ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٩ - ٤٠ ، Deanesly, p. ج ١ .

(٤) العبادى ص ٣٣ ومايليها . ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٦٢ . ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠ . ابن عذارى ج ١ ص ١٦ ، راجع الفصل الثالث .

(٥) ابن عبد الحكم ص ٢٦٥ ؛ Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, pp. 153-4

غير أن عقبة عاد لولاية المغرب مرة أخرى فى عام ٦٢ هـ / ٦٨٢م . جاء وهو يشتعل حماسة للفتح والبلاء . ولكنه أخطأ التقدير . يوم انحرف عن سياسة سلفه . وأخذ البربر بالقهر وعاملهم بالقوة ، اعتقادا منه ، أنهم لا يخضعون إلا للقوة . فقبض على كسيله كما قبض على أبى المهاجر وأوثقه بالحديد، ووصل فى زحفه إلى ساحل المحيط الأطلسى (١) ، ثم عاد مغترا بنصره ، فلم يأخذ الحيطة ، ومن ثم أحدق به الروم والبربر وقتلوه ، كما استشهد أبو المهاجر فى المعركة ، وكان للبحرية البيزنطية أثرها الحاسم فى هذا النصر (٢)

سأل المسلمون الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ/ ٦٨٥ — ٧٠٥ م) أن يعمل على تخليص أفريقية ومن بها من المسلمين، من يد كسيله، الذى كان قد دخل القيروان ٦٤ هـ ، فأجاب الخليفة « لا يصلح لطلب دم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينا وعقلا (٣) » ، واستقر الرأى على تولية زهير بن قيس البلوى ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، ونجح زهير فى القضاء على كسيله وقتله فى وقعة مس أو نمش ، وفى عودة زهير قضى عليه الروم بسبب تفوقهم البحرى (٤) .

---

(١) راجع الفصل الثالث

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٧٢ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ ، عمر فروخ : العرب والإسلام و الحوض الغربى من البحر المتوسط ص ٦٥

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ١٧ — ١٩

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ١٩ — ٢١ ، ابن عبد الحكم ص ٢٧٢ . ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧

خلفه حسان بن النعمان الغسانى (٧٨ — ٨٦ هـ / ٦٩٧ — ٧٠٥ م) وقال له الخليفة عبد الملك بن مروان : إنى قد أطلقت يدك فى أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، واخرج إلى بلاد أفريقية وعلى بركة الله وعونه (١) . سار حسان على سياسة أبى المهاجر دينار فى اصطناع البربر ، لمحاربة الروم ، وهم العدو المشترك ، ودمر قرطاجنة (٢) حتى يحرم أسطول الروم من هذه القاعدة ، فهرب من كان بها من الروم إلى صقلية والأندلس (٣) ، غير أن خطراً واجه حسان من عدو صعب المراس ، هو « الكاهنة » زعيمة البربر البتر ، وهى امرأة يهودية لها قوة روحية ونفوذ كبير على البربر ، تخبرهم بأشياء من الغيب ، فسميت الكاهنة ، ومعقلها جبل أوراس وتتحكم فى كل شمالى أفريقية . ويقال إن حساناً سأل أهل القيروان عمن بقى من أعظم ملوك أفريقية ، وذلك بعد قضائه على قرطاجنة . ليسير إليه فيبيده أو يسلم . فدلوه على الكاهنة بجبل أوراس وقالوا له : وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون . وجميع البربر لها مطيعون ، فإن قتلتها ، دان المغرب كله ولم يبق لك مضاه ولا معاند » (٤)

التقى بها حسان فى « وادى سكيتانه » الذى عرف بوادى العذارى ،

---

(١) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٢

(٢) يسميها أهل تونس (المعلقة) انظر المرجع السابق ص ٢٣

(٣) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٤

(٤) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٥

فهزمته ، (١) بعد أن هدمت مدينة « باغية » وأخرجت منها الروم حتى لايتحصن بها حسان ، فارتد حسان إلى برقة وانتظر فيها بأمر الخليفة ، وأقام حسان ببرقة خمس سنوات، حيث أقام قصوراً ، ولايزال مكان إقامته يعرف إلى الآن بقصور حسان (٢) .

وخلال هذه الفترة تحكمت الكاهنة فى جميع بلاد المغرب ، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة . ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى ! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ! (٣) »

وكانت هذه سقطة وقعت فيها الكاهنة ، فإنها بعد أن وجهت قومها للتدمير والتخريب ، أثارت البربر البرانس والروم ، فاستغاثوا بحسان . انتهز حسان الفرصة ، واشترط على البربر الذين انضموا إليه . أن «يعطوه من قبائلهم اثنى عشر ألف مقاتل يجاهدون مع العرب (٤)» ، فأجابوه

---

(١) كانت الكاهنة قد أسرت ثمانين رجلا من أعيان أصحاب حسان ،وأحسنت معاملتهم وأعادتهم إليه باستثناء خالد بن يزيد ؛ فقد استبقته منها وقالت له : مارأيت فى الرجال أجمل منك ولا أشجع ، وأنا أريد أرضعك ، فتكون أخا لولدى — وكان لها ابنان أحدهما بربرى والآخر يونانى ... ثم قالت له « نحن جماعة البربر لنا رضاع ، إذا فعلناه نتوارث به » . فعمدت إلى دقيق الشعير ؛ فلتته بزيت وجعلته على ثديها ، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثدى ! ففعلا ، فقالت : قد صرتم إخوة . (البيان ج ١ ص ٢٧)

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٥ — ٢٦ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢٦٩ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ١٥٤ ؛ البلاذرى ج ١ ص ٢٧٠ ، العرب والإسلام ص ٦٩ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ ، العبادى ص ٣٦ — ٣٧ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٧ — ١٥٤ — ١٥٥ .

وأسلموا على يديه ، وانتصر حسان على الكاهنة وقتلها ، وأخرج البربر مع العرب لقتال الروم « ومن كفر من البربر » (١) ، ثم انصرف حسان إلى القيروان ، بعد أن حسن إسلام البربر واستقامت له طاعتهم ، كان ذلك فى شهر رمضان سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م ، ولذلك يعتبر حسان الفاتح الحقيق للمغرب ، فقد نظم الفتوح وصالح على الخراج ودون الدواوين . (٢).

ولما ولى موسى بن نصير أفريقية عام ٨٩ هـ / ٧٠٨ م سار على النظم التى وضعها حسان ، واقتفى أثره وسياسته فى اصطناع البربر ، وسوى بينهم وبين العرب فى المعاملة . واستأنف موسى عمليات الفتح ونجح فى إتمام فتح شمالى أفريقية حتى وصل إلى طنجة (٣) واستعمل عليها مولاه طارق ابن زياد .

وكانت سبته (Ceubta) قد صمدت أمامه بسبب قلاعها الحصينة ، غير أن تطور الأحداث قد أدى إلى ارتمائها فى أحضان العرب وإلى تسهيل مهمة عبورهم إلى أسبانيا ، هذه المدينة تتبع بيزنطة اسميا ، لكنها اعتمدت على ملكة القوط الغربيين عبر الزقاق (٤) ،

وهكذا تم فتح شمالى أفريقية ، وهذا هو الفتح الكامل الحقيقى ، وهو

---

(١) البيان المغرب ص ٢٩

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٣٠ – ٣١ ، ٣٣ – ٣٤

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٧

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٩ ، العبادى ص ٤٣ ، دولة القوط الغربيين المؤلف ص ١٢١ Dozy, Op. Cit. T. II, PP. 33 - 35 ; Scott, OP. Cit., p. 221

ليس من قبل الاحتلال أو الاستعمار ، لأن هذه النعوت ليست لها صفة الدوام أو الاستمرار أو التركيز ، هذا هو الفتح الحربى والمعنوى إلى أبعد الحدود ، فإن لغة الفاتح ودينه وعادته وثقافته ، حلت محل اللغة والدين والعادات التى كانت عليها البلاد المفتوحة ، بمعنى آخر ، هذا هو التعريب الصحيح ، فقد أضحى البربر عدة العرب فى الفتوح ونشر الإسلام ، بل إن الجيش الذى عبر به طارق إلى الأندلس ، كان خليطاً من العرب والبربر ، وربما كان البربر العنصر الغالب فيه (١).

غير أن ساحل أفريقية الشمالى ، كان منذ أقدم العصور . نقطة وثوب على أوروبا ، كما هو فى نفس الوقت مطمع للوثوب عليه من الجانب الآخر من البحر (٢) ، فقد غزته روما قديما منذ عصور ماقبل الميلاد . وفى القرن الخامس الميلادى أعد ألاريك القوطى الجرمانى ، ومخرب روما ، مشروع الغزو الافريقى للحصول على غلات أفريقية . لولا موته الفجائى (٣) ، وهكذا فعل الوندال يوم عبروا الزقاق عام ٢٤٩ م . وأسسوا لهم مملكة فى شمالى أفريقية . عمرت نحو قرن من الزمان (٤) . ومن بعدهم القوط الغربيون وهم فى مملكتهم بأسبانيا .

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢١ ؛ العبادى ص ٣٧ ـ ٣٨ . ابن عبد الحكم ص ٢٤٧.
Risler, J.C., La Civilization Arab, pp. 36-46; H. G. T. I, p. 444

(٢) Bury, J., Op. Cit., p. 89

(٣) انظر : Moss, OP. Cit., p. 46 ; Lot, Op. Cit. p. 77 ; Hodgkin, T., Italy & Her Invaders, Vol. I. pp. 806-809 , Bradley, Pp. 97-81

(٤) انظر : شمالى أفريقية والوندال المؤلف ؛
Oman, Op, Cit., p. 283
Leclercq, Op. Cit, P. 363 ; Watils, Op. Cit. P. 17

ووثب هانيبال العتيق من شمال أفريقية ودمر أسبانيا الرومانية ، كما ضرب إيطاليا . وهاهم أولاء العرب المسلمون يتهيئون لغزو أوروبا الجنوبية من هذا الساحل ، وذلك فى نهاية القرن الأول البحرى ومطلع القرن الثامن الميلادى .

والمتواتر فى الكتب العربية والأجنبية . أن كونت يوليان (Juliann) حاكم سبتة . قد استعدى العرب على القوط بسبب اعتداء لوذريق ، ملك القوط المغتصب ، على عفاف ابنته (١) ، وأنه هو الذى زين للعرب فتح أسبانيا (٢) ويقال إن أبناء الملك المخلوع وتيزا Wetiza ، وهو المعروف فى الكتب العربية باسم غيطشة (٣) قد اتصلوا بيوليان . واتفقوا معه على أن يتصل بالعرب ، للاستعانة بهم ضد المغتصب لوذريق (٤).

والراجح أن العلج « يوليان » (٥) أدرك أن العرب قد صاروا قوة لا يمكن الوقوف أمامها ، ورأى من الحكمة وبعد النظر أن يصطنع هذه

---

(١) هناك بعض الشك فى قصة اعتداء لوذريق على ابنة يوليان ، ويقول قلة من المؤرخين إنها أسطورة .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١١٦

(٣) ذكره ابن القوطية باسم غيطيشة ، وسماه القلقشندى غطسة ، وفى غيرها غيطشة (ابن القوطية ص ٢٨–٢٩ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٤١ ، ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٥ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٢١ – ١٢٣)

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٣١ – ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، أخبار مجموعة ص ٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٩ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٧ – ٦٦

Soett,I. pp. 217 - 219 ; De Marlès p. 62

(٥) ابن عذارى ج ٢ ص ٦

القوة الجديدة الفتية ليحتفظ بولايته فى سبته . ومن ناحية أخرى ليدرك ثأره من حادث الاعتداء على ابنته (١) ، يضاف إلى ذلك ، صلته الوثيقة بالأسرة المالكة القديمة التى أزالها لوذريق. كذلك اتصل بالعرب انتقاماً لعرضه ونصرة للأسرة المخلوعة .

والذى لاشك فيه أن العرب جاءوا إلى أسبانيا بنية الفتح لا بنية إمداد غيرهم . فلم يكن الغزو المأجور من شأن العرب . ولم تجر بذلك عادة فى فتوحهم السابقة . ووقائع الفتح تثبت هذا بما لا يقبل التأويل ، ولعل أصدق دليل على ذلك تلك الحملة البحرية التى أرسلها أبو المهاجر دينار والى أفريقيا فى عام ٥٦ هـ/٦٧٥ م . لغزو شواطىء أسبانية . حيث تصدى لها أسطول القوط (٢) وتلك الحملة البحرية التى أرسلها موسى بن نصير لغزو جزيرة ميورقة عام ٨٩ هـ - ٧٠٨م بقيادة ابنه عبدالله (٣).

وأياكانت الأسباب . فالثابت أن يوليان اتصل بطارق بن زياد والى مرطانية من قبل موسى بن نصير . فأوصله طارق بدوره عام ٩١ هـ/ ٧١٠م إلى موسى . فاستشار موسى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٤) . فأشار الوليد بأن يكون حذرا فى مشروعه . ومما جاء فى كتاب الخليفة « خضها بالسرايا

---

(١) ابن عذارى جـ ٢ ص ٦ ؛ العبادى ص ٤٨ ؛ العرب والإسلام ص ٧٦ — ٨٠

(٢) العبادى ص ٥٢ ؛ Direnne, H., Mohammed Charlemagne P. 155, De De Marlés PP. 64 - 66, Deanesly, P. 106, Diehb, P. 589, Leclercq. P. 862

(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٢١ ، انظر مايلى

(٤) اختلفت الأقوال فى طريقة استشارة موسى للخليفة ، فهناك من يقول إنه كتب إليه يستشيره ، وهناك من يذكر أنه شخص بنفسه (ابن عذارى جـ ٢ ص ٦)

ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، راجعه موسى : « ليس ببحر زخار . وإنما هو خليج يتبين للناظر ماخلفه »(١)

وبموافقة الوليد . أرسل موسى سرية بقيادة رجل من مواليه البربر . هو طريف بن مالك . ويكنى أبازرعة . وتتكون السرية من مائة فارس وأربعمائة راجل ، وقدم يوليان السفن اللازمة لنقل هذه القوة عبر الزقاق . نزلت القوة الإسلامية فى رمضان عام ٩١ هـ / ٧١٠ م على الشاطئ الأسبانى ، فى المكان المعروف اليوم ، باسم رأس طريف Tarifa ، أو جزيرة طريف ، نسبة إليه(٢) . وعادت الحملة غانمة ، يقول الحميرى : « فأصاب سبياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسناً ، ومالا جسيما وأمتعة »(٣) .

اطمأن موسى بن نصير إلى جانب يوليان(٤) ، واستوثق من حال أسبانيا القوطية ، وأرسل جيشاً كبيراً مؤلفاً من اثنى عشر ألف مقاتل ، أكثرهم من البربر(٥) ، واختار لقيادة هذا الجيش مولاه طارق بن زياد ،

---

(١) الروض المعطار ص ١٢٧ . ابن عذارى ج ٢ ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ١١٨

(٢) الروض المعطار ص ١٢٧ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٦ . تقويم البلدان ص ١٦٥

(٣) الروض المعطار ص ١٢٧ . العبادى ص ٤٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٠٦
De Marles. PP. 66 - 68 Levi - Provencal. pp. 8-9 ; Scott, p. 224

(٤) ذكر المقرى أن يوليان « عاود القدوم على موسى بن نصير محركا فى الاقتحام على أهل الأندلس » ، وشجعه بالنصر الذى ظفر به طريف . (نفح الطيب ج ١ ص ١١٩) .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٧

وكان موسى قد بلى قدرته وكفايته فى الحروب السابقة (١). نزل طارق بجيشه ، فيما يسمى الآن « جبل طارق » ، نسبة إليه ، ويسميه العامة : « جبل الفتح »(٢) .

وكان لوذريق فى ذلك الوقت يحارب البشكنس Basques والفرنجة Franks فى الشمال ، فلما علم بنزول العرب ، أسرع نحو الجنوب .

وفى يوم الأحد ، لليلتين بقيتا من شهر رمضان عام ٩٢هـ / ١٩ يوليو عام ٧١١ م ، التقى طارق بجيش القوط الغربيين الذى كان يفوق الجيش الإسلامى من حيث العدد(٣) ، التقى الجيشان فى وادى نهر لكه Lakko أو فحص شريش Xeres أو Jepez De la Frontera (٤) ، كانت روح الجيش القوطى المعنوية منحطة ، بسبب كثرة ما فيه من العبيد والأرقاء ، كما كان به نفر من الأسرة المالكة القديمة وأنصارها ، ويقال إن لوذريق ، اتصل بأبناء غيطشه ، ودعاهم لمناصرته ضد العرب ، فى هذا الوقت العصيب ، فقدم هؤلاء ، ولكنهم أضمروا الغدر به ، واتصلوا بطارق ، قبيل الوقعة ، وأعلموه « أن لوذريقا إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه » وطلبوا منه ، أن « يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس ، وكانت ثلاث آلاف ضيعة ، سميت

---

(١) العبادى ص ٤٩ ، De Marles, pp. 67 - 68

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٠٧ ، الروض المعطار ص ١٢١

(٣) بلغ جيش القوط نحو أربعين ألف مقاتل (نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨)

(٤) الروض المعطار ص ١٠٢ ، ١٦٩ ـ ١٧٠ ، تقويم البلدان ص ١٦٥ ، أخبار مجموعة ص ٨ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٧٣ ،

Levi - Provencal. p.8; Pirenne, Moh. & Charl., p. 155

بعد ذلك صفايا الملوك ، فلما أصبحوا ، انحازوا بمن معهم إلى طارق ، فكانوا سبب الفتح » (١).

ثم إن وجود عدد كبير من كبار أنصار غيطشة ، فضلا عن بعض أقربائه بجيش لوذريق ، كان من بين أسباب هزيمة القوط ، فقد كان هناك الأسقف أوباس Uppas أحد إخوة غيطشة ، وسيسبرت Sisebert أسقف طليطلة المعزول ، وهو من أقرباء الملك المخلوع . ترك هذا الفريق مواقعه فى أثناء القتال ، فدارت الدائرة على القوط (٢) .

استولى المسلمون على أشبيلية Seville وقرطبة Cordova وطليطلة Toletum العاصمة ، غير أن النصر النهائى لم يكن قد تم بعد ، إذ جمع لوذريق فلول جيشه وعاد يهدد طليطلة التى اتخذها العرب عاصمة لهم ، وحينئذ طلب طارق نجدة من موسى ، فأنجده بجيش استولى به على عدة مدن مثل مارده Marida وغيرها عام ٧١٣م(٣) .

لحق موسى بطارق ، واشترك معه فى فتح بقية أسبانيا ، وليس حقاً ما قيل إنه حقد على طارق وأراد أن يقاسمه شرف النصر والفتح . يقول المقرى « وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم . فحركته

---

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٩

(٢) ابن القوطية ص ٣٢ ـ ٣٤ ، العرب والإسلام ص ٨١ وما بعدها ،
Watts, P. 16 ; Dozy, II, pp. 33 - 35 ; Leclercq, p. 369

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٨ ، الروض المعطار ص ١٨ ـ ٢٢ ، ١٥٣ ـ ١٥٨ ؛ ١٧٥ ـ ١٧٧ . ابن القوطية ص ٣٣ ـ ٣٥

الغيرة . وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه . ويأمره ألا يتجاوز مكانه »(١) . والواقع أن أبا عبد الرحمن موسى بن نصير شعر بالمسئولية والتبعية . وخشى من اندفاع الجيش الإسلامى ، معتزاً بنصره ، حتى لا تنقطع عليه خطوط الرجعة(٢) . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن موسى « إنما فعل ذلك به — أى أمر طارقاً بالتريث حتى يقدم — لتقدمه دون رأيه ، وهو مولاه ، وعلى توغله بالمسلمين وتغريره بهم »(٣).

حدث بعد ذلك ، أن ثارت المدن الكبرى ضد السيادة العربية الإسلامية الجديدة . مثل أشبيلية وطليطلة وغيرهما ، فاضطر العرب إلى فتحها من جديد(٤).

أما أبناء الأسرة المالكة القديمة . وأسرة يوليان . فقد استمالهم العرب وأرضوهم بالأموال والقصور والإقطاعات ، فقد اتصل أبناء غيطشة بطارق بعد الفتح ، فأوصلهم إلى موسى بن نصير ، وهذا أوصلهم بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق ، حيث تلقاهم بالترحاب والإكرام ، وأنفذ لهم عهد طارق فى ضياع والدهم ؛ وعقد لكل واحد منهم سجلا بضياعه . ومما ورد فى هذه السجلات :

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ ، ١٢٦ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤ ، ابن القوطية ص ٣٥

(٢) العبادى ص ٥٠ — ٥١ ؛ أخبار مجموعة ص ١٥ — ١٨

Dc Marlés PP. 97 - 1oo Lane-Poole, St., The Moors in Spain, pp. 23-27

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣

(٤) ابن عذارى ج٢ ص ٢٢

« ألا يقوموا إلى داخل عليهم ولا إلى خارج منهم »(١) . عادوا إلى الأندلس ؛ وتسلموا ضياعهم . ومن سلالتهم سارة المعروفة بالقوطية . وهى جدة المؤرخ أبى بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية(٢).

كذلك أرضى المسلمون النبيل القوطى « ثيوديمر Theudemer » حاكم مورسية Murcia ؛ وهو الذى دافع بشجاعة عن بلاده ؛ فأكبر فيه العرب شجاعته ؛ وأقره موسى على البقاء فى حكومة إقليمة ؛ مع تبعيته للمسلمين . وظل على ذلك حتى مات . وحينئذ . ضم العرب « أرض تدمير » — كما كانوا يسمونه ؛ أو « مملكة تدمير »(٣) . ولتدمير هذا كتاب صلح ، كتبه له عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ خلال ولايته على الأندلس . حدد فيه حقوقه والتزاماته . ونسخة هذا الكتاب :

---

(١) ابن القوطية ص ٣٠ ، ٦٠ — ٦١

(٢) أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسى الأشبلى الأصل ، القرطبي مولدا ، صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ، نسب إلى جدته سارة القوطية ، وبها اشتهر ، وهذه الجدة هى ابنة وامبا Wan ba أو « وبه » كما تكتبها المراجع العربية ، ووامبا هو ابن غيطشة ملك أسبانيا ، ووفدت هذه الابنة على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرطباس بن غيطشة ، فتزوجها بالشام عيسى بن مزاحم ، من موالى عمر بن عبد العزيز ، وسار معها إلى الأندلس حيث طالت حياتها إلى أيام عبد الرحمن الداخلى الأموى وغلب اسمها على ذريتها ، حتى عرفوا بها (انظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ ، ٣١ — ٣٢ ؛ نفح الطيب حـ ١ ص ١٢٥ ، شكيب أرسلان : غزوات العرب ص ٣٠ — ٣١ (عن ابن خلكان) .

(٣) الروض المعطار ص ١٨١ — ١٨٣ ؛ فجر الأندلس ص ١١٢ — ١١٤ ، صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٣٠ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١٣٤ ، ابن عذارى حـ ٢ ص ١٦ — ١٧ ؛ دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٩ ؛ Lévi - Prov., T.I, PP. 81 - 2

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش(١) .

« إنه نزل على الصلح ؛ وأن له عهد الله وذمته ، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ، ولا يؤخر ، ولا ينزع من ملكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد . وذلك ما أدى الذى اشترطنا عليه . وأنه صالح على سبع مدائن : أريولة وبلتنية ولقنت ومولة وبلانة ولورقة وأله(٢) . ولا يأوى لنا آبقاً ولا يأوى لنا عدواً ، ولا يخيف لنا آمناً ، ولا يكتم خبر عدو علمه . وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح(٣) وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلاء وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك » وكتب فى رجب سنة ٩٤ من الهجرة (٤) :

---

(١) يقال إن تدمير هذا هو ابن إرجوبادو Ergobados أحد كبار قواد غيطشة ، وعبدوش أو غندوش هو تحريف كلمة إرجوبادو ، ويجوز أن يقرأ غوبادوش أوجوبادوش (فجر الأندلس ص ١١٢ ، Lévi - Prov. I, P.P. 32 - 33

(٢) Orihuela, Baltana, Alicante, Mula, Villena, Lorca & Ello.

(٣) المديساوى رطلا وثلثا بالبغدادى — الرطل البغدادى يساوى ١٣٠ درهما — ويساوى رطلين بالمصرى ، ويعتبر أقل من الربع المصرى ، وهو عبارة عن ملء كفى الإنسان المعتدل بالحبوب إذا مدهما ، ومن هنا جاءت التسمية بالمد ، وقد جرب الفيروز أبادى ، صاحب القاموس المحيط ، ذلك فوجده صحيحا . (انظر القاموس المحيط ، وانظر ابن مماتى ص ٢٤١)

(٤) الروض المعطار ص ٦٢ — ٦٣ ، المغرب فى حلى المغرب (تحقيق شوقى ضيف) ص ٢٤٣ — ٢٤٤ — والمخطوطة . ج ٤ ورقة ١٠٣

« شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى وحبيب بن عبيدة الفهرى . وعبد الله بن ميسرة الفهمى وأبو قائم الهذلى »(١) .

وتدمير هذه هى التى أطلق عليها اسم « مصر » لكثرة شبهها بها فى الخصب والزراعة(٢) . ويقال إن هذه التسمية حدثت زمن ولاية أبى الخطار فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م . حين كثر أهل الشـــام عنده ولم تحتملهم قرطبة ففرقهم فى البلاد . وأنزل أهل دمشق إلبيره(٣) وسماها دمشق لشبهها بها ، وأنزل أهل حمص أشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنسرين جيان (٤) ، وسماها قنسرين وأهل الأردن ريه(٥) ومالقة وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شذونه(٦) وهى شريش (٧) وسماها فلسطين ، وأهل مصر تدمير وسماها مصر (٨) .

---

(١) هذه التكملة عن فجر الأندلس ص ١١٥ .

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٥ ، ابن عبد الحكم ص ٢٨٠ ، Lane - Poole, op. Cit ، P. 25; De Marlés, PP. 69 - 73, Albert de Cicourt, Histoire Des Mares Mudejares et Des Morisques ou Des Arabes D' Espagne, T. I, PP. 1-7 .

(٣) Elvira

(٤) Jaén

(٥) هذا الاسم أطلقه المسلمون فى أسبانيا على منطقة مالقة ، ومالقة هى عاصمة هذه المنطقة ، ويحتمل أن كلمة ريه محرفة عن العاصمة اللاتينية Regio.

(٦) Sidona

(٧) Jerez De la Frontera وهى من كور شذونه .

(٨) نفح الطيب حـ ١ ص ١١٠ ، ابن عذارى حـ ٢ ص ٤٨ ـ ٤٩ ، أعمال الأعلام ص ٧ ، ابن القوطية ص ١٩٣

وتم فتح أسبانيا فى خلال أربع سنوات من ٩١ هـ — ٩٥هـ / ٧١٠ — ٧١٤م ، وأضحت أسبانيا الإسلامية جزءاً من إمارة المغرب، والمعروف أن ولاة المغرب ، هم الذين تولوا أمر الفتح ، كما أن ولاية المغرب نفسها ، كانت فى كثير من الأحيان تابعة لولاية مصر ، وكان هذا الشطر من العالم الإسلامى واسع الرقعة ، يكاد يكون إمبراطورية قائمة بذاتها ، غير أن أسبانيا الإسلامية أخذت تكون شخصيتها تدريجيا وتستقل بشئونها، حتى إنه خلال عهد الإمارة (٩٥ — ١٣٨ هـ / ٧١٤ — ٧٥٥ م) ، صار المسلمون بها يختارون الوالى عليهم ، أو يختاره عامل مصر وأفريقية أو عامل أفريقية وما على الخليفة إلا أن يوافق (١) .

فمثلا ، ممن ولى إمرة الأندلس باختيار أهلها ، أيوب بن حبيب (٩٧ هـ / ٩٨ هـ) ، وعبد الرحمن الغافقى فى ذى الحجة ١٠٣ هـ ، ويحيى بن سلمة العلبى بعد وفاة عنبسة سنة ١٠٧ هـ ومحمد بن عبدالله الأشجعى الذى مكث فى الولاية شهرين سنة ١١١ هـ ، وثعلبة بن سلامة العاملى الذى ولاه أهل الشام بالأندلس عام ١٢٤ هـ ، ويوسف بن عبد الرحمن الفهرى (١٢٩ — ١٣٨ هـ) . ومن الولاة الذين تولوا أمر الأندلس ، بأمر عامل أفريقية أو عامل مصر وأفريقية : الحر بن عبد الرحمن الثقفى سنه ٩٩ هـ ، وعنبسة بن سحيم الكلبى فى صفر : ١٠٣ هـ وأبو الخطار حسام بن ضرار من قبل حنظلة ابن صفوان عامل أفريقية سنة ١٢٥ هـ ، وعقبة بن الحجاج السلولى الذى

---

(١) العبادى ص ٥١ ، ٦٢ ، Albert, op. Cit., P. 276 sqq Wahl. op. Cit P. 47 sqq

ولاه عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر وأفريقية فى شوال عام ١٢١ هـ ، وهكذا ... (١).

* * *

على أن السيادة الإسلامية فى هذه البقعة من أوربا ، لم تكن منبسطة على جميع أجزائها ، فقد بقيت الأقاليم المتطرفة التى لم يعن العرب بفتحها بعيداً عن السيادة الإسلامية الفعلية ، وذلك لقحولتها وبرودتها ووعورة مسالكها ، فكانت ولاية أشتوريا Asturias قد احتفظت باستقلالها تحت حكم سادة من القوط الغربيين . وهؤلاء السادة يعتز ملوك أسبانيا المتأخرون بالانتساب إليهم، ويفخرون بأنهم من سلالتهم ، وحتى فى العصر الحاضر كانت الأسر النبيلة فى أسبانيا تفخر ببقاء عنصرها القوطى ، وإن لم يكن هذا صحيحا فى جميع الأحوال .

حقيقة أن العرب المسلمين لم يقضوا على القوط الغربيين ، سادة أسبانيا السابقين ، ولم يطردوهم كما طرد الإمبراطور جستنيان أشقاءهم القوط الشرقيين من إيطاليا قبل ذلك بما يقرب من قرنين ، بل ظل القوط الغربيون خاضعين لسلطان المسلمين ، كما خضعت بقية أسبانيا المسيحية ، واندمج القوط مع السكان الأصليين حتى صار العنصران شعباً واحداً ، ويمكن القول إنه منذ دخول العرب أسبانيا ، صار تاريخ القوط هو التاريخ القومى لأسبانيا (٢).

---

(١) انظر ابن عذارى حـ ٢ ص ٣٠ ـ ٥٢ ، نفح الطيب حـ ١ ص ١١٠ ، أعمال الأعلام ص ٦ ـ ٧ ، العبادى ص ٦٢

(٢) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٨ ـ ١٢٩

وكانت ولاية أشتوريا ، التى بقيت بمعزل من سلطان المسلمين ؛ النواة التى نمت حولها قوة المقاومة المسيحية الوطنية فى أسبانيا، حتى اتسعت رقعة المنطقة المسيحية تدريجيا، فشملت جليقية Galicia (١) ثم اندمجت جليقية وأشتوريا فيما عرف باسم مملكة قشتالة وليون فى فجر القرن العاشر الميلادى ؛ كما قامت مملكتا نافار وأرجون فى منطقة الحدود عند سفح جبال البرانس .

(١) يطلق العرب على سكان جليقية اسم الجلالقة نسبة إلى الإقليم ، وهؤلاء الجلالقة ليسوا سوى السويف Suevi الجرمان الذين دخلوا أسبانيا فى مطلع القرن الخامس الميلادى واقتسموا البلاد مع غيرهم من العناصر الجرمانية ، واندمجوا مع السكان الأصليين (انظر الروض المعطار ص٦٦ـ٦٧) Bury, op. Cit., Ve. I, P. 185, Courcelle, of. Cit., P.8., Leclercq, op. Cit , PP. 213 - 216